

أوروبا نفسها خصوصاً إذا رأى السياح أن النفقة في الجبل أقل مما في جبال الألب وأنها لا تبلغ مع أجور النقل في البحر والبر والمبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطياف. وبعد فإننا لا نفتأ نكر القول بأن من الأنفع لأبن لبنان أن يوجه بعد الآن وجهته إلى الداخلية ليعتاش ويرتاش وأنه إذا استفاد المهاجرون منا إلى أميركا من حيث ارتقاؤهم في اقتباس بعض أصول التمدن في المنس والملبس والمأكل والسكن فإن الأنفع له اليوم أن يسعر بلاده وهي تحتاج إلى أضعاف أضعافهم. وسوف يعلنون أن هذه النصيحة صادرة عن إخلاص لا يراد منها إلا نفع لبنان خاصة وسورية عامة فإن يقاسيه اللبناني من ألم الغربية والمهانة في الأحياء واحتقار الغربي له مهما بلغ من مكانته جدير بأن لا ينسب بلاده والعيش بين أهله وجيرته. وقدر أحد العارفين منذ ثلاث سنين أن ما حمده اللبنانيون المهاجرون إلى لبنان يبلغ خمسمائة ألف ليرة أي على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا أن هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هذا المبلغ يعادل ما فقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والأدبية.

نمضة العربية الأخيرة

ساحتي الأخوان (١)

سألتوني سعدت بكم أوطانكم أن أحدثكم بطرف من تاريخ نمضة اللغة العربية في المئة سنة الأخيرة وما منكم إلا من استفيد منه وأتشرف بالأخذ عنه. أنتم من أهل الفضة الفاضلة في وطنكم يتوقع منكم أن تنيروا آفاق جهله بأنوار معارفكم وأن تعبروا أكناف معالمة ومجاهله بما ثقفتوه في هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتوه من عنم صحيح وآداب رافعة. فإني لي وأنا نازل بينكم متعلماً لا معلماً أن أفوه في حضرتكم

بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع مصانع الخطباء وتقرير جهابذة الباحثين والعلماء وما حالي وحالكم لو أنصفتكم وأنصفت نفسي إلا حال من يحمل الثمر إلى حجر أو المسك إلى أرض الترك استغفر الله بل أن حال من ينقي محاضرة على جمعية الإخاء المصرية في باريس أعجب وأغرب.

إخواني: تعلمون قوت بكم عيون مصر أنه أتت على اللغة العربية أدوار وأطوار وعرض لها ما يعرض لكل كائن في الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة وأن أتعس أيام ضعفها كانت في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة وهو عهد الفتور في جسم الأمة الإسلامية عامة والأمة العربية خاصة. ثلاثة قرون بل أكثر مضت في مرض مستحکم كانت تكفي لموت هذه اللغة الشريفة التي تعقد اليوم على أمثالكم خناصرها وترجو بمساعيدكم أن يكون مستقبلها خيراً من حاضرها وغابرها بيد أن لغة يفرض على زهاء مائتي مليون من المسلمين أن يتعلموها لينهضوا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضطرلال ما دام في الأرض مسلم يوحد الله.

لابد لكل حركة من سبب. وسبب ما عرا العربية من الضعف في تلك القرون انقطاع المنوك عن الأخذ بيدها فأصبحت الأمور العنيفة صورية ينظر فيها إلى الأشكال لا إلى الحقائق واقتصر الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد وعدوا ما عداها من العلوم فضولاً لا غناء فيه وساعد على انتشار هذا الرأي السخيف ما أصاب البلاد من ضعف الأحكام وفساد النظام ولا غم حيث يفقد الأمن وفي النادر أن يهتم جاهل بتعليم أو يربي من لم يتررب.

وكان قدرة المولى تعلقت بأن هذه اللغة التي نشأ لها الضعف من أبنائها أن تأتيها الصحة على أيدي غيرهم. وربما يعجب بعضهم الآن إذا قلنا له أن مبدأ فحوض اللغة العربية كان في مصر أيام محمد علي وقد صحت عزمته على خدمتها مسوقاً بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من أهل العلم من الفرنسيين فكان من أعماله الحظيعة ما خلد له الفخر على الدهر وجعله من حيث خدمته للغة والعلم لا من حيث منازعه السياسية من أعاجيب الحكام في الشرق. والشرق أبو المعجزات والكرامات.

ليس من يجهل أن محمد علي كان أمياً أو يقرب من درجة الأمية. مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لأنه كان ارناؤدياً ولم يخط سطوراً واحداً لأنه تعلم في الكهولة مبادئ طفيفة من حسن الخط والقراءة فقط. ومع هذا فقد عني بما لم يكن به أحد من منوك المتأخرين وشرع منذ استتب له أمر مصر يختار الأذكياء من أبنائها ممن قرؤوا الدروس الوسطى فيبحث بهم على نفقة الحكومة إلى أوروبا ليخصوا في العلوم التي أولعوا بها حتى إذا عاد أحدهم وأتم تحصيله بحسبه عنده في قلعة الجبل ويخرج له كتاباً بالفرنسية في الفن الذي أتقنه ويوعز إليه بأن لا يخرج من القلعة قبل أن يترجمه بالعربية ويأمر له بأسباب الراحة والمعينات على الترجمة والتأليف. فإذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على أمير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس أو إلى لجنة كانت معروفة إذ ذاك بلجنة الامتحان^١ فبعد أن تنظر فيه ترخص بطبعه في المطبعة الأميرية ويغدق الأمير على المترجم أنواع الهبات ويشترع في ترقية في المراتب إن كان ممن استعدوا للإدارة أو الجنديّة أو البحرية وإذا كان من الأساتذة يوسد إليه التدريس في بيوت العلم موسعاً عليه في الرزق ليخرج به أبناء مصر. وهو عمل يذكرنا بما كان يأتيه المأمون العباسي من الأتباع على

المترجمين ولكن ما يصدر عن المأمون وهو أعلم خيفة في الإسلام لا يستكثر منه وعصره شباب هذه الأمة بقدر ما يستكثر ما تم على يد محمد علي الأمي الألباني وعصره عصر شيخوخة الإسلام والمسلمين.

قال لي صديقي الدكتور عثمان بن غالب أحد حسنة مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التي اختطها محمد علي لمن يجيء بعده وشاهد تلك الحركة العلمية في إبانها ثم شاهدها في انحطاطها وهو يشاهدها الآن في تجدها: لقد ظلت قضيتنا العلمية سائرة أحسن سر إلى سنة ١٨٨٢ فنا بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من أبناء مصر نفسها وهو علي باشا مبارك ناظر المعارف فسعى وربما كان بدون قصد سيء منه لإحلال اللغة الإنكليزية محل اللغة العربية في المدارس الأميرية زاعماً بأن الواجب على المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لا يتأتى إلا إذا أتقن المصريون لغة البريطانيين فبدأت نظارة المعارف في أيامه وبعدها تسبب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لأبناء انكسروا وقطعت الإرساليات العذبة إلى أوروبا حتى لم يكذب يبق اليوم من أولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل إذا عادوا إلى منابر التعليم لا يسدون حاجة مصر وأخذت المعارف في عهد المبارك تطهر المدارس بأمثال دنوب وارثين من كل ما ينفع اللغة أو كان من آثار النهضة الأولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة أكادساً من مستودعها كما يطرح القذى والنوى لتسجل العار على من عقوا لغتهم وأمهم كما عق أخوة يوسف ابن أبيهم عل حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التأليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرهما من مصنفاته.

قال غالب بك كان أكثر أساتذة المدارس التي أنشئت في مصر على عهد نهضة الأولى من الفرنسيين المستعربين يكتب الأستاذ درسه بالفرنسوية والمترجم معه ينقله إلى العربية فيلقي على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الأستاذ بروجر بك الفرنسي رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية إلى خديوي مصر في عهده يقول له في تقريره السنوي أن الوقت قد حان لأن تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين إذ أصبح فيهم الأكفاء الآن وأن مهنة فرنسا في تربية أبناء مصر في هذه الفروع العنية قد انتهت أو كادت.

نعم في ذاك العهد تم للعرية ما تريد من تعريب المصنفات العنية والأدبية على اختلاف أنواعها فأضحت لغة علم بعد أن انقطع سند العنوم منها قروناً وأحيا أولئك المصريون أمثال الطهطاوي والرشيدي والشباسي والهيهاوي والنحراوي وحماة ومجت والفنكي وندى والنراوي والبقلي ألفاظاً من اللفظ كانت في حكم المدارس هجرت منذ كان العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية في بغداد والأموية في قرطبة والفاطمية في مصر وأضافوا إل تلك الألفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التي سنك عليها أجدادنا العربون غالباً حتى أن الأتراك والفرس لما شرعوا يعنون العنوم في البلاد العثمانية والإيرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا أمامهم كثيراً حاضراً يتفهم به في الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة في الهندسة والطب والعنوم والاجتماع والفنسة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية برمتها وأدجموها في تضاعيف لغتهم.

كان الطلبة الذين أرسلهم محمد علي إلى التخرج في أوروبا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن همة لواء العلم لا في القطر المصري فقط بل في البند العربية كافة وأصبحت مصر بيض أياديهم من هذه البلاد بمشابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وهز أعصابها للارتقاء حتى بلغت الكتب التي ترجمت في فنون مختلفة من الإفرنجية زهاء ألفي مجلد. والأثر الأكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ من ألف وترجم في عهده بما خلفه من قلته أو عرب في قلم الترجمة برئاسة وما بثه من المبادئ في مدرسة اللغات ومجنته روضة المدارس. وكنها أعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جليل. خل عنك تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الأثناء ومنها جريدة وادي النيل لأبي مسعود ومجنته الطب لكنوت بك.

ورب معترض يقول أي علاقة لعلم العلوم الجديدة ونقلها إلى العربية بحياة اللغة التي يراد منها آدابها المثورة والمنظومة ليس إلا. والجواب أنه لا أدب لمن خنت لغته من أمثال هذه المعارف. فكما أن للعلوم ارتباطاً كلياً بعضها ببعض هكذا خنت لغته من أمثال هذه المعارف. فكما أن للعلوم ارتباطاً كلياً بعضها ببعض هكذا اللغة دخل عظيم في سلاسة آدابها بما تأخذه عن غيرها بل إن لغة مهنا حوت من أنواع البديع والمعاني والبيان لا تعد من اللغات الحية إن لم تكن لغة علم قبل كل شيء.

وهنا مسألة مهمة لا أحب أن أمر بها وأنا متطرق لأن لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الأدبية وهي أنا إذا تدبرنا تاريخ محمد علي وحسناته على العلوم والمعارف لا نلبث أن نشبهه من ملوك الإفرنج بالإمبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية. وشارلمان كنا لا يعزب عن عنكم كان من أعظم ملوك دهره وله صفة بملوك المسلمين وهو الذي

أنفذ إليه الرشيد العباسي رسولا من قبله سنة ١٨٠١م يحمل إليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهذا الذي كان يحمي المتجئين إليه من أمراء المسلمين الهاربين من الخلفاء في قرطبة. كان شارلمان لأول أمره أمياً تعلم الكتابة البيطة على كبر مثل محمد علي إلا أن تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروساً فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المستيرين والمحصلين الذين يستعين بهم على نشر المعارف بما أنشأه من المدارس بإشارة الكوين المشهور أستاذه وأمين سره وبأذن الجرائيم الأولى من المعارف في هذه الأرض الفرنسية وبمساعدته أنشئت المدارس في اكس لاشبل عاصمة البلاد إذ ذاك وتور واورليان وليون واستنخت الكتب الوفرة ليتفع بها الطلاب.

ومن العجيب أنه حدث لهضة شارلمان ما حدث لهضة محمد علي حذو القذة بالقذة وذلك أنه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت ريجها جملة واحدة لأن من خفقوه على سرير الإمبراطورية لم يكونوا على قدم ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولأن الأعمال العظيمة في البلاد المنحطة قد تقوم بالفرد أكثر من قيامها بالأفراد وعلى العكس منها في البلاد الراقية. أتت خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مات في خلالها التعليم أو كاد ولم تدب روح التجديد فيها إلا بانتباه عقول الأمة وعلى يد أناس من أبنائها كما قامت مصر منذ نح عشر سنين تجدد حياة آدابها بيدها بعد محمد علي بنحو خمسين سنة متكئة في مهنتها على نفسها لا على الحكومة وبذلك جاز لنا الاستنباط بأن كل إصلاح يقوم بالأمة في هذا الوجود يكون الأمل في بقائه أكثر مما يقوم بيد الحكومة ولا سيما في الدول الإستبدادية التي تجد فيها تمييزاً بين الأمة والحكومة. والحكومات قد تعرض لها عوارض تنسى معها الترغيب في العلم ومنها إلى اليوم من

يفضل الجهل على العنم. وهذه المسألة نظائر كثيرة في تاريخ الأمة العربية فقد رأيناها تسعد وترقى في برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهدناها تنحدر وتنحط بفرد آخر لا يرجع إلى عقل ولا إلى نقل.

كان الأدب العربي قبل دور النهضة الأخيرة عبارة عن سجع كسجع الكهان طول بلا طول ولا طائل وجل باردة سمجة وشعر ركيك أكثره في الأماديخ والأهاجي وإن ارتقى الشاعر انقلب لسانه في وصف الخد والخال وذات النطاق والخنخال من ربات الحجال أو الذكران من الرجال. وما أظنكم أعز الله بكم دولة الأدب إلا قد وقع لكم شيء كثير من أمثال هذه الركاكات والسخافات فضربتم بها عرض الحائط وخدمتم الله على أن تخلقكم في زمن قام فيه من الكتاب أمثال محمد عبده وأحمد فارس وإبراهيم الموينحي وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الحوراني وطاهر الجزائري وعبد الله فكري ومحمود شكري الألوسي وجمال الدين القاسمي وحفي ناصف ويعقوب صروف وإبراهيم مصور وسليمان البستاني وعبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وقاسم أمين وأحمد فتحي زغلول ورشيد رضا ورفيق العظم وعبد الحميد الزهراوي وعبد العزيز جاويز وصالح حمدي حماد وليب البتوني وفريد وجدي ومحمد فريد وعلي يوسف وأحمد تيمور وزكي مغامر وشاكر شقير وسامي قصيري وشحادة شحادة وسعيد الشرتوني ورشيد الشرتوني وفروح انطون وجرجي بني وإبراهيم النجار وأديب اسحق ونعوم لبكي ونعوم مكرزل وأحمد فؤاد وسعيد أبو جهرة ومصطفى الغلاييني وعبد الباسط فتح الله ومحمد بيوم وخير الدين التونسي ومحمد المهدي وشكري العسلي وشاكر الحنبلي وعبد الوهاب الإنكليزي ونجيب شاهين واسكندر شاهين وسعيد الباني ومحمد مسعود وحافظ عوض وحسن

حسني الطويراني وأحمد سمير وعبد الغني العربي ورزق الله حسون ويوسف البستاني
 وأنطوان جميل وعادل أرسلان ونسيب أرسلان وجرجي حداد ورشيد عطية ونجيب طراد
 ويوسف زخم وعبد الوهاب النجار وميثيل بيطار وخليل زينية ومحمد مصطفى وأحمد
 زكي ومصطفى لطفي المنفوطي وأمين ظاهر خير الله وعيسى اسكندر المعنوف وديمتري
 قندلفت ويوسف الخازن وروحي الخالدي ومحي الدين الحياط ومحمد الموينحي وخليل
 سعادة وداود بركات وبشارة زلزل وبولس زوين وعبد القادر المغربي وبدر الدين
 النعماني ومرسي محمود ومحمد صادق عنبر وعبد الرحمن البرقوقي وعبد القادر المؤيد
 وعبد الكريم سلمان وأحمد الصابوني وعشرات غيرهم لا تحضرنني الآن أسماؤهم من
 شيوخنا وكهولنا وشبابنا. وقام من الشعراء محمود سامي وعبد الحسن الكاظمي وإسماعيل
 صبري وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي ومعروف الرصافي وجميل الزهاوي وشكيب أرسلان
 وفارس الخوري وخليل مطران وعبد الله البستاني ومصطفى صادق الرافعي وبطرس
 كرامة وناصيف اليازجي وعبد الباقي العمري ونجيب الحداد وأمين الحداد وولي الدين
 يكن ونقولا رزق الله وشبلي ملاط وداود عون وفضل القصار ورزق حداد وغيرهم
 ومن الخطباء جمال الدين الأفغاني وعبد الله نديم وإبراهيم الهلباوي وسعد زغنون وأحمد
 الحسيني ونقولا توما ومصطفى كامل وعبد الرحمن سبندر وأنيس سنوم واسكندر
 العازار وفارس نمر ومحمد أبو شادي وأمين ربحاني ومحمد لطفي جمعة وأحمد لطفي السيد
 وأحمد عبد اللطيف وعمر لطفي وأحمد لطفي وإبراهيم النقاشي وأحمد محمود وعبد العزيز
 الثعالبي وغيرهم ممن هم عدة العربية في هضتها الأخيرة عملوا خيرها في مصر والشام

والعراق وتونس أعمالاً وخلف أكثرهم من مآثر فضله ما يطرس المتأدبون عليه وينسجون على منواله.

وبينا كانت اللغة العربية تزهر في مصر في الإمارة العلوية عزّ على الشام أن تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة في سورية لا بواسطة الحكومة كما في مصر بل بواسطة الأفراد والجمعيات وذلك في أواسط القرن الماضي وكانت بيروت مدينة وهي ثغر لبنان وسورية موطن تلك الشعلة وقد جاءها أناس من مرسلي الفرنسيين والأميركان وأنشؤا فيها مدارس جعلوا لغتها الأولى اللغة العربية وأتقنها كثيرون من أهل لبنان فحمد مسعاهم وكانت اليد الطولى في تشييط لغة قريش لندكتورين كرنينوس فانديك ويوحنا ورتيات وهما من أعظم مؤسسي الكلية الأمريكية الأنجليزية في بيروت تعلمنا العربية والأول أميركي والثاني أرمني ودرسا بها مع أقرانها العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرهما عليها أن عمدة المدرسة لما عمدت أن تجعل لغة التعليم في الكلية اللغة الإنكليزية بدل العربية قاوما ما وسعتهما المقاومة ولما أخفقا استقلالاً من وظيفتهما لأنهما أبت مروءتهما إلا أن يحضيا النصح للبلاد ولتفتحها. والدكتور كرنينوس فانديك الأميركاني في سورية بفضله على اللغة العربية وما عرب لها من كتب العلم أشبه بالشيخ رفاعه الطهطاوي في مصر ووجه العجب في فانديك أعظم لأنه أميركي والمنشأ غار على لغة العرب أكثر من أنها ومن الغضاضة على مصر والشام أنهما لم تعرفا لها حقهما على ما يجب وكان على القطرين أن يرفعاهما ثقالين كما رفعت باريز هوغو وروسوا وكما رفعت مصر لحمد علي وإبراهيم. والعناء لم يكونوا أحق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا أقل من أن يكونوا على مستواهم.

ولقد كان من أعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت على ذلك الدور أيضاً بطرس البستاني وأسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من أصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الأسير وإبراهيم الأحمد وناصيف اليازجي وأسرته وغيرهم. فهؤلاء كنهم توفروا على التعليم وتخرج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في أقطار الشام ومصر وأميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والخطباء. ولم تحرم الأستانة - والعواصم مرزوقة منذ خلعها الله من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبمحه وأعني به أحمد فارس الشدياق الذي اقترح عليّ صديقي سيد أفندي كامل من رجال الجامعة المصرية أن أتوسع في الكلام عنه.

أصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مسيحية خرج من بلاده مغاضباً فقضى زمناً طويلاً في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وإنجلترا وتعلم خلال ذلك الإنكليزية والإفرنسية ثم دان بالإسلام وألف بعض الكتب ومنها اللغيف في كل معنى طريف طبع في مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتب في أوربا كتاب الساق على الساق في ما هو الفاريانق أو أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠هـ. وضعه ترجمة حياته وشؤوناً وشجوناً على أسنوب يجمع بين الجدة والفكاهة تقدر أن تعدّه من الإنشاء المعروف عند الإفرنج بالأمور منيك (الجد في الهزل) أو الرياليست (الحقيقي) الذي حدث في عهد فنوبر أو الناتوراليست (الطبعي) الذي تم على يد زولا وانك لتدهش من قدرته فيه على التعبير ورشاقتة في التصوير ومثابته في التحرير والتجوير فكان النقة التي كان من جهة محفوظات أحمد فارس فيها قاموس الفيروزآبادي الذي ألف كتاباً مهماً في نقده سماه

الجاموس عنى القاموس - كانت نصب عينيه يأخذ منها كل ساعة ما يشاء ويستحضر في دقيقة ما يصعب الإتيان به في ساعة ويتقن ما شاء بيانه وتبيانده. ونلفظ الفاريق مقتطع من أول اسمه فارس وآخر اسم أسرته الشدياق. وقد حمل في كتابه عنى رؤساء الدين حجة منكراً لأن بعضهم قتلوا أخاه ظليماً وتعصباً جعونه في بناء لهم وبنوا فوقه لأنه دان بالمذهب البرتستانتى (١).

هبط أحمد فارس مدينة الأستانة بعد أن أخبر حال أوروبا بخبرة زائدة وأنشأ جريدة الجوائب التي طار صيتها في الأفاق ورزق الحظوة بعلمه فكان ملوك الأطراف يهادونه ويمنحونه المنائح ومن كان يساعده خديوي مصر وباي تونس وملك باهوبال في الهند حسن صديق خان الذي طبعت له مطبعة الجوائب معظم تأليفه العربية وكان هذا الملك أعلم الملوك المتأخرين بل أشبه بأبي الفداء صاحب هذه في جمعه حكم الناس إلى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة العجم والعرب في فهم أسرار الكتاب والسنة.

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الإنشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا التي أسست بعدها عنى نسخها وقل أن نشأت جريدة في صحها ودياجتها العربية النهم إلا أن تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومصباح الشوق لإبراهيم بك الموينحي والبرهان للشيخ حمزة فتح الله وذلك لأن جريدته كانت كهاته أسبوعية وله فيها مساعدون في الأقطار العربية كان يهاديهم ويهادي عشاء عصره حتى كثر أحبابه من العناء في شمالي إفريقية وغربي آسيا ووسطها وهو الذي يتولى النظر في كل ما ينشر فينقه ويروقه وناهيك بكلام تصقله الأنامل الفارسية. فأحمد فارس هذا لو أنصفنا هو واضع أساس الصحافة العربية وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلفه من

آثاره ومن أراد أن يطلع على شيء من كتاباته في جوائبه فعليه بالرجوع إلى كثر الرغائب في منتخبات الجوائب وهو مطبوع متداول وإن أحب الإطلاع على الجوائب برمتها في حجمها ووضعها فليرجع إليها في خزائن الكتب في أوروبا ومصر والأستانة.

ولم يقف عمل أحمد فارس عند حدود نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب سر النبال ورحنة له إلى أوروبا جدة محضة وكتاب نحو اللغة الإنكليزية وديوان شعره وغيرها بل نشر طائفة من كتب الأدب واللغة والشعر ككتب الثعالي والتوحيد والطهراني والبدیع وغيرهم من أئمة الأدب نشرها على أحسن أسلوب راق في طول البلاد عرضها بأثمان بخسة فعمت بها الفائدة وأنشأ طلاب الآداب يتحدونها في أسنوبها. وما برحت مطبوعات الجوائب إلى اليوم يتنافس المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب لينتفع بها الأحفاد والبنون على ممر الدهور والقرون.

ابتلى أحمد فارس بأناس حسدوه وأي عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره ونشره وينتقدون جريدته وكتبه ولكن تلك المناقشات النغوية والأدبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزهم لم تزد فارسنا إلا جرأة على الجري في مضماره وقبولاً بين العالمين بمصنفاته وآثاره فكان بنقده بعض كتاب اللغة العربية أشبه بسانت بوف في نقده كتاب عصره من الفرنسيين فاستفاد أرباب الأقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد مما دار بين التقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق وبذلك أخذ من يعانون صناعة القلم يتأنون قليلاً فيما يكتبونه وأخذت تحف أغلاط الكاتبين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كلما نقل الناقلون عن اللغات الإفرنجية ونحنا المؤلفون مناحي قدماء الكتاب في ترك التكلف والتعسف حتى صح لنا أن نقول اليوم أن أسنوب الكتابة العربية لا ينقص عن

اللغات الإفرنجية الراقية بإيجازه واندماجه وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المنشين وسلاسة المعاصرين وأفكارهم.

نعم عادت للغة العربية ولا سيما في الثلاثين سنة الأخيرة نضرتها الأولى في القرن الرابع والخامس والسادس لنهجرة وخصنا من ذلك السجع المتكنف الذي أتاننا به العباد الكاتب الأصفهاني من فارس - وفارس مورد بدع كثيرة في الإسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب... ونقله إلى العربية فأجاد في أكثره إلا أن من جاؤا بعده قد أفسدوا علينا لغتنا لأنهم لم يتقنوه.

وإني لا أزال أذكر ما كنت أكثر من مطالعته واستظهاره أيام ولوعي بالأدب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصايي وتاريخ البيني لنعني ومقامات الزمخشري ومقامات الأصفهاني وقلاند العقيان وذينة مطمح الأنفس للفتح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكهة الخلفاء لأبن عربشاه وخزانة الأدب لأبن حجة والريحانة للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت أطرب لتلاوتها ولا أكاد أفارقها في خلوتي وجلوتي. ولما كتب لي الإطلاع على الآداب الفرنسية والتركية وأنشأت أبحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون وأبي حيان التوحيدي وابن مسكويه والراغب الأصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وأبن العمد وأبن خندون وأبن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشين غلوت أعجب من نفسي كيف أضاعت وقتها في تلقف تلك الأسفار المسجعة وفي اللغة مثل هج البلاغة والبيان والتبيين والذريعة والإحياء وغيرها مما لا يتسع المجال لتعدادده وهو في الحقيقة ونفس الأمر مادة أدب كنا هو مادة عليم لا تبلى على الدهر جلقا ولا تخنق

دياجتها كما كنت أعجب من إقبالي أيام الطلب على تلاوة شعر ابن النيه وابن معروق
والصفي الحلي وابن منجك وابن منيك والجندي من شعراء المتأخرين وعند العرب من
أهل هذا الشأن أمثال أبي الطيب وأبي عباد وأبي نواس والشريف الرضي وابن حمديس
وأبي فراس الحمداني.

يرجع الفضل الأكبر في انتشار دواوين الأدب والتاريخ واللغة من كتبنا لعناء المشاركة
من الغربيين أمثال دوزي ودساي ووستفيلد وعشرات غيرهم من أهل أوروبا وبعض ما
نشره اليسوعيون في مطبعهم المثقنة في بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي ألفت
في أوقات مختلفة في مصر لإحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التي طبعت لنا
المختصر لأبن سيدة وأحسن كتاب عني بطبعه في شرقنا ولما طبعته المطبعة الأميرية
ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس. كل هذه الأعمال أعانت
العربية على تحسين آدابها وترقيتها. ولا تنسى غيرة أولئك الذين نجوا في منظومهم
ومثورهم على مناحي الأوروبيين من حيث قلة الكلفة ومجاعة الطبع ومحاكاة الطبيعة
ووصف عواطف النفس بإيجاز وإعجاز وأولئك الذين وقفوا أنفسهم منذ عشرات من
السنين يعربون لنا كل يوم في جرائدهم ومجلاهم أفكار الغربيين في سياستهم وعلومهم
واجتماعهم فكونوا مجتمعنا الأدبي على ما ترونه وجددوا للغة شبابها بحيث أمانا بفضيلهم
عليها من الغناء وأصبحنا نرجو لها دوام النماء والارتقاء.

أنا لا أقدم لكم مثلاً من أمثلة ارتقاء لغتنا أكثر من أن أحيكم على مراجعة مجموعة من
جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة في سورية والفلاح والخروسة في مصر
وأن ترجعوا إلى كتابة الدواوين في مصر في منتصف القرن الماضي مثلاً وترجعوا إليها

اليوم وإن كانت إلى الآن عشيقته الركائكة بعض الشيء. قابلوا المنشورات التي تصدر اليوم في الوقائع الرسمية في مصر وما كان يصدر من أمثاتها منذ مئة سنة مما أورد الجبرتي في تاريخه نموذجاً صالحاً منه بنصه وفطنه. عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به ألسن الحامين وأقلامهم في مصر من التفنن في أساليب الدفاع والتأثير الخطابي وبين ما كان للغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب الخماطة طرفاً صالحاً منه يتجلى لكم كيف ارتقت لغة القضاء. استمعوا لخطباء اليوم ممن درسوا الدروس النظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقابلوها بأكثر ما يحفظه خطباء الجوامع أو يقرأونه من المسجعات في دواوين الخطب القديمة. تدبروا لغة التمثيل اليوم وإن كنا فيه دون سائر فروع الآداب تأخراً وأسألوا كيف كانت منذ البدء حليفة الضعف والسناجة. اقرأوا المحاضرات التي تتلى اليوم في نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في مصر الحالية من العقيد والغلط الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التي كانت تتلى زمن الثورة العراقية وبعدها مثلاً تدركون كيف وفقنا الله إلى قيام بناء آدابنا على هذا الأسلوب الرائق والإبداع في الأداء والإلقاء.

أليس مما يعد من فوضى اللغة ما نراه من أحكام منكرتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فقد رأينا طلبة أحداثاً تخرجوا من دار العلوم فكانوا والله أعرف بالعربية وقوتها من أكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الأخير على غير حق أما من تمحض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفخر العربية في هذا العصر استحكت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء وأحاطوا بعلوم الوقت إحاطة نبهاء الغربيين.

وإليكم أيضاً مثلاً صغيراً أذكره لكم على ما أتت به بعض مدارس مصر في حياة اللغة فقد شاهدت في وادي النيل بعض العدد ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجملة تسقط فيها على روح البيان والتلف في التعبير مما لا تنوده في عسلطات الحشين والمهشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين وما ذلك إلا بفضل المدارس المنظمة وما تلقيه الجرائد على مسامع الناس وأنظارهم كل يوم من فصيح العربية وشواردها وتفنن فيه من أساليب التعليم. نعم إن مطالعة الجرائد والمجلات أعانت على انتشار الآداب وأدخلت الغيرة على التعلم في نفوس أرباب الاستعداد.

ولذا رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الأصول الحديثة ولم يولع أهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم ما زال أهلها إلى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراكش فإن مدينة فاس منذ القديم ما خلت من أفراد يعانون الآداب على الأصول القديمة ولكنهم في الحمة خير من أهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم فرداً يعد في الطبقة الثانية في كتابنا فيما علمت وما ذلك إلا لأن اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر في دور من الأدوار سوق نافقة ولأن حكومتها تحاول منذ القديم أن تجعل أهلها فرنسيّاً في لغتهم وأفكارهم ومنازعهم.

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثها فيها خير الدين باشا التونسي وأشياعه فإن الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لانتباه التوانسة الأذكياء من الخلدونيين وغيرهم. أما طرابلس الغرب وبرقة الصحراء والسودان فهي من أخوات الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عديمها ولكن هناك في صحراء مراكش بلد غريب في تنقف ملكة العربية وأعني به شقيط بند الشيخ محمد محمود

الشنقيطي الحافظ المشهور في عصرنا. وطريقة أهلها طريقة الأقدمين في التلقي والامتظار وقد شوهدت في شنقيط بعض البنات الشنقيطات إلى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم وأظن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الأزهر.

أما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في إحياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الأخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حنب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ومجد وحضرموت ومقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق إلا أن ذلك لم يحل دون نبوغ بعض أفراد شاركوا أتم المشاركة في حياة العربية ونعني بهم بعض أولئك العراقيين النوابغ الذين ألفوا وكتبوا ولم يعقهم الحجز على الأفكار الذي دام في البلاد العثمانية إلى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لا نغالي إذا قلنا أن ثلاثة أرباع ما تم للعربية من الارتقاء في القرن الأخير يرجع الفضل فيه لمصر والربع الآخر يوزع على سورية والعراق وتونس. ومن الأسف أننا لا نزال نرى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربي منها يكاد يكون أشبه بالمالطية والكروثونية منه بالعربية الحجازية فسقط فيها من الأغلاط في التركيب والتأليف والألفاظ والوضع وما تسأل الله معه السلامة وأقل من ذلك غلط تلك الجرائد التي صدرت مؤخراً في طرابلس الغرب وبعض مدن سورية الصغرى وبغداد والبصرة والموصل وأحسن منها جرائد مهاجري سورية في أميركا الشمالية والجنوبية وهي لا تقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد والرشيق. ومع هذا فإن الآمال قويت بأن لا ينصف هذا القرن الرابع عشر لنهجرة إلا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التي ينطق فيها بالضاد بل بالصاد والحاء والحاء والعين والغين والثاء والذال والظاء ورقيت لغتنا بمساعي المنورين من أبنائها

أمثالكم درجة عالية خصوصاً في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث أنوارها وأريد بها الحجاز واليمن ونجداً فإن فيها بقايا من أرباب الذكاء النادر إلى الآن من لو تمرنوا على العمل إذا قهيات لهم الأسباب لأتى على أيديهم خير كثير للأمة ولا يرجي ذلك إلا متى انقطعت شأفة الفتن من تلك الأقطار وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم ليتفرغوا أو أفراد للدرس والاستنارة.

هذا ما أحضرني في موضوع نهضة العربية الأخيرة ألقيته في هذه المحاضرة وربما خرجت عن البحث بعض الشيء وساحة عفوك تمنعني وأنتم تعلنون أي على أوفاز استودعكم الله والسلام عليكم.

طريقة التعليم

كان من أول الإصلاح في أوروبا أواخر القرون الوسطى وأوائل القرون الحديثة لما شرعت الأمم الراقية فيها تدرس العلوم المادية والأدبية أن أتت على طريقة التعليم تصلحها بما يقتضيه حال الزمن والتجارب فتم لها في أوائل القرن الماضي تنظيم مدارسها على النحو الذي نراها عليه اليوم وأصبحت يدخلها الطالب فيتعلم في بضع سنين لغو أو لغتين أو ثلاثاً معها إلى ما يتحتم عليه معرفته من العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية فيخرج الطالب بعد هذه الدروس النظامية الأولية منبأً بفروع كثيرة بل بأمهات العلوم وأصولها المقررة لإعداد العقول للتخكير والأنامل للكتابة والألسن للنطق والأجسام للحركة وهذه الدروس التي يسمونها دروس الموضوعات (الأنكلوبيدية) يمر فيها الطالب على كثير من المطالب تغنيه إذا أراد الاختصار عليها والانصراف إلى أكثر الأعمال التجارية والصناعية والزراعية والعنيفة. وإذا سمحت به همته إلى الإخصاء في